الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. ولاية واشنطن
كنيسة مار جرجس بمدينة سياتل
السَّبت ١٠/١٠/٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

المعموديَّة هي باب الدُّخول إلى الإيمان لحياة تدوم في المسيح

تقديم

لقد اقتصر التَّعليم عن المعموديَّة، ومفاعيلها في حياتنا، على بعض الدَّارسين في الحلقات الدِّراسيَّة، أو المعاهد الدِّينيَّة فحسب، وغاب غياباً شبه كُلي، عن التَّعليم في الكنائس.

والأمر الذي يدعو إلى الغرابة – بل إلى غاية الغرابة – هو أنَّ التَّعليم عن المعموديَّة، هو البَاب الأوحد والوحيد للدُّخول إلى الإيمان، ولدوام الحياة في المسيح، ومن ثمَّ إلى الحياة الأبديَّة. فكيف يمكن أن يكون هناك تعليمٌ عن الإيمان في الكنيسة، بدون الدُّخول من هذا البَاب؟!

حين نتكلَّم ونُعلِّم عن المعموديَّة، فنحن نتكلَّم ونُعلِّم عن حدث خطير حدث في حياتنا الشَّخصيَّة، ومستمر فينا، أي في حياة كلِّ واحد فينا بشخصه، وهو أننا بالمعموديَّة صرنا أولاداً لله، ووارثين لملكوته. فإن كنَّا نعرف هذا، لكنَّنا لا نعرف كيف حدث هذا؟ ماذا قلنا، وبماذا تعهدنا، أو تعهَّد ذوونا عنَّا حتى بلغنا؟ وكيف نحفظ العهد؟ أليس هذا هو ما يدعو إلى غاية الغرابة؟

يقول الأب ألكسندر شميمان (+ ١٩٨٣م) اللاَّهوتي الأرثوذكسي الرُّوسي الشَّهير: ”إنَّ اللِّيتورجيَّة المسيحيَّة لا تحقِّق معناها وفعاليَّتها في الكنيسة إلاَّ بالمعموديَّة ومن خلالها. فالمعموديَّة هي قلب ليتورجيَّة الكنيسة وتقواها. هي باب الحياة الجديدة، والقوَّة التي تحفظ هذه الحياة وتنمِّيها فينا. هي محور التَّقوى المسيحيَّة وأساسها فينا“[١].

ويقول أيضاً: ”إنَّ المسيحيِّين الآن يبذلون المستحيل، ليعمِّدوا أولادهم ليجعلوهم مسيحيِّين. ولكن كم شخصاً بينهم يهتم حقًّا بأن يفهم كيف تجعل المعموديَّة الإنسان مسيحياً؟ وماذا يحصل فعلاً في المعموديَّة؟ ولماذا يحصل ما يحصل؟“[٢].

وبالإجمال، ”إنَّ حياتنا كلَّها تستندُ إلى المعموديَّة، وتُعطَى لنا فيها، ويجب أن تكون على صلة دائمة بها. ففهم هذا السِّر فهماً صحيحاً، لا يكون مجرَّد ضرورة فكريَّة، بل هو ضرورة كيانيَّة لنا“.

سرّ المعموديَّة، هو سرّ الميلاد الجديد من الله وفيه. هو سرّ الميلاد الفوقاني من الماء والرُّوح القُدُس، للحياة في المسيح. فالمعموديَّة هي التي تمنح المؤمن مشاركة المسيح في موته وقيامته[٣]، على مدى حياته كلِّها، سواء التي يحياها هنا على الأرض، أم التي له في السَّماء. فهي ليست مثل الميلاد الجسداني، الذي من بعده، ينفصل المولود عن أُمِّه، وبعد حين يستقل عنها نهائيًّا. لكنَّها ميلاد روحاني من الله وفيه.

المعموديَّة تُطهِّر الإنسان من خطاياه[٤]، وتهبه الخلاص[٥]، وتمنحه أن يتَّحد بجسد المسيح[٦]، ويصير هيكلاً للرُّوح للرُّوح القُدُس، وينضم إلى شركة الكنيسة[٧]، وتوحِّده مع بقيَّة المؤمنين ليصير الجميع جسداً واحداً وروحاً واحداً،

---

١ – الأب ألكسندر شميمان، بالماء والرُّوح، منشورات النُّور، ص ١١
٢ – نفس المرجع، ص ٨٢
٣ – رومية ٤:٦
٤ – ١كورنثوس ١١:٦
٥ – مرقس ١٦:١٦
٦ – ١ كورنثوس ١٣:١٢
٧ – أعمال ٤١:٢، ٨:١٨

بإيمان واحد لربٍّ واحد، لأنَّ المعموديَّة واحدة[٨]، والرُّوح القُدُس واحد. ونحن نردِّد كل يوم في كنائسنا قائلين: ''ونعترف بمعموديَّة واحدة لمغفرة الخطايا''. ولكن من منَّا يعرف شيئاً عن هذا الميلاد الفوقاني؟

إن أخطر ما في الأمر، هو في قول الرَّب: «إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والرُّوح، **لا يقدر أن يدخل** ملكوت السَّموات»[٩]. وقوله أيضاً: «إن كان أحد لا يولد من فوق، **لا يقدر أن يرى** ملكوت الله»[١٠]. لا يقدر أن يدخل، ولا يقدر حتى مجرَّد أن يرى ملكوت الله. ولكنك تقول لي: وأنا تعمَّدت فسأدخل الملكوت. ولكن يبقى السؤال قائماً: هل التزمت بما تعهَّدت به في يوم معموديَّتك، لكي ترث ملكوت الله؟

في الكنيسة الأولى، كان يتحتم أنَّ الإيمان يسبق المعموديَّة. فالمعمودية تتبع الإيمان. «وكثيرون ... إذ سمعوا آمنوا واعتمدوا» (أعمال ٨:١٨). ويوضح لنا آباء الكنيسة[١١]، أنَّ هناك علاقة واضحة ووثيقة بين الإيمان الواحد والمعموديَّة الواحدة والإله الواحد. فإن كانت صحَّة المعمودية تعتمد على صحَّة الإيمان الذي تعطي على أساسه، فهذا بدوره يعتمد على وحدة الثَّالوث القدُّوس، الآب والابن والرُّوح القُدُس. ونحن نُصلِّي كل يوم في صلاة باكر، ونقول: «ربٌّ واحد، إيمانٌ واحد، معموديَّة واحدة» (أفسس ٥:٤). «لأننا جميعاً بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى داخل جسد واحد .. وجميعنا سُقينا روحاً واحداً» (١كو ١٢ : ١٣).

هذه هي الرِّسالة التي جاء المسيح من أجلها، أن يكون للكنيسة ربٌّ واحد، وإيمان واحد، ومعموديَّة واحدة.

فما هو هذا الإيمان الواحد الذي تتكلَّم عنه؟

واضحٌ هنا أننا إزاء حديث عن تعهُّد تعهَّدناه، وإيمان اعترفنا به. فما هو هذا التَّعهد، وما هو هذا الإيمان.

أوَّلاً: التَّعهُّد بجحد الشيطان

تعهَّدنا يوم معموديَّتنا، أن نجحد الشيطان. وهي ممارسة طقسيَّة في غاية الأهميَّة، كانت تستغرق في الكنيسة الأولى طيلة الصَّوم المقدَّس الكبير. وهناك بعض الممارسات الأساسيَّة التي تسبق جحد الشيطان؛

الممارسة الأولى: تُعرف باسم طقس التَّعري. فبحسب الطَّقس القبطي القديم، يتعرَّى المعمَّد من جميع ملابسه. وطقس التَّعري هو طقس تعرفه الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً، ولكن في أوقات مختلفة من مراسيم تتميم السِّر. وفي ذلك يقول القدِّيس أمبروسيوس أُسقُف ميلان (٣٣٩-٣٩٧م):

[نحن نأتي إلى جُرن المعموديَّة عُراة كما نأتي إلى العالم][١٢].

ونحو القرن الرَّابع الميلادي أو بعده مباشرة، تطوَّر طقس التَّعري أو تعدَّل، في بعض الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، حيث يخلع الموعوظون ملابسهم، ويرتدون بدلاً منها قميصاً قصيراً يُسمَّى ''تنك'' Tunique ، وبه تتم مراسيم جحد الشيطان وإعلان الإيمان. وهو ما يخبرنا به القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم:

[... لماذا بعد أن نعظكم، ينزعون عنكم الثِّياب والأحذية، ويرسلونكم حُفاة عُراة، إلاَّ من رداء قصير، لتسمعوا كلمات المعزِّمين][١٣].

ويشرح آباء الكنيسة أنَّ طقس التَّعري، يرمُز إلى خلع الإنسان العتيق، ويرمز إلى التَّمثُّل بالسيِّد المسيح الذي عُلِّق

٨- أفسس ٥:٤
٩- يوحنَّا ٥:٣
١٠- يوحنَّا ٣:٣
١١- ولاسيَّما البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، والقدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م)، والقدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م).
١٢- عظة ٢٠
١٣- تعليم المعموديَّة ١١:٩

على الصَّليب عُرياناً، ويرمز أيضاً إلى انتصار المسيح على الشيطان، وتخليص الأسرى من يديه.

الممارسة الثَّانية: هي دهن المُعمَّد بزيت، له عدَّة أسماء هي: زيت الموعظين τῆς κατηχεσῆς χρῖσμα أو ''زيت الموعظة''، أو ''الزَّيت السَّاذج'' أو ''الزَّيت العادي''[١٤]، وهي ممارسة تعرفها الكنيسة القبطيَّة وحدها منذ غضون القرن السَّادس الميلادي. حيث يقوم الكاهن بدهن المُعمَّد أربعة رشومات[١٥]، في مواضع القلب واليدين والظهر. ويقول: ''أدهنك يا (فُلان) باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس الإله الواحد. زيت عظة (لفُلان) في كنيسة الله الواحدة المقدَّسة الجامعة الرَّسوليَّة آمين''.

الممارسة الثَّالثة: يضع الكاهن يده على رأس الذي سيُعمَّد، ويُصلِّي عليه صلاة تدعى صلاة طرد الشياطين، أو صلاة الاستقسام، ἐξορκισμός ومنها جاءت الكلمة الإنجليزيَّة Exorcism والتي تُرجمت إلى العربيَّة ''التَّعزيم''. فيها يقول الكاهن:

''**باسم الابن الوحيد يسوع المسيح**، أهيئ تطهير هذا الجسد. **باسم الابن الوحيد يسوع المسيح**، فليُعتَق من كافة الشياطين، ومن سائر الأدناس. ولتهرب من هذا الجسد كلُّ ظلمة. وكلُّ فكر قلَّة الإيمان، فليهرب من هذه النَّفْس. **باسم الابن الوحيد يسوع المسيح ربِّنا**، تطهُر وتُعتَق من جميع الشياطين إلى الأبد آمين''.

ويقول الكاهن أيضاً بعد دهن المعمدين بزيت الغاليليون: ''أيها السيِّد الرَّب الإله ضابط الكُل، نصرخ نحو اسمك القدُّوس المبارك، لكي تفتش وتطرد كل القوَّات المارقة والمضادة، عندما نطلب إليك يا سيد بجميع قديسيك. فتش قلوب عبيدك الذين تقدموا إلى حميم نعمتك، وإن كان شر الشيطان مخفياً فيهم، اكشفه، وليعلن، اطرده من نفوس وأجسام عبيدك المؤمنين باسمك القدُّوس''.

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام، توضِّح لنا أصالة وعُمق الصَّلوات اللِّيتورجيَّة القبطيَّة. فكلَّ الطِّلبات والصَّلوات في الطَّقس القبطي، موجَّهة للآب في اسم ابنه الوحيد يسوع المسيح ربِّنا، وهي السِّمة الفريدة التي تميِّز ليتورجيَّة كنيسة الإسكندريَّة. أمَّا هذه الصَّلاة السَّابق ذكرها، فهي باسم الابن الوحيد يسوع المسيح مباشرة. وهذا هو التَّقليد القديم للكنيسة الجامعة، منذ قرونها الأولى.

فهناك كتاب شهير اسمه: ''المراسيم الرَّسوليَّة''، وهو يشمل ثمانية كُتُب. تمَّ الانتهاء من تأليفه في أواخر القرن الرَّابع الميلادي. وقد تُرجمت السَّبعة كُتُب الأولى منه إلى العربيَّة، باسم ''الدِّسقوليَّة''، وأمَّا الكتاب الثَّامن منها، وهو أهم هذه الكُتُب جميعاً، فيحوي ''قوانين الرُّسُل''. وفي هذا الكتاب الثَّامن ترد جميع الصَّلوات فيه موجَّهة إلى الآب بواسطة الابن، باستثناء صلاة واحدة فقط، وهي الصَّلاة التي تُقال على الذين بهم الأرواح الشِّريرة قبل انصرافهم (٨:٧). فتقول هذه الصَّلاة:

''أيها الإله الابن الوحيد، ابن الآب العظيم، انتهر هذه الأرواح الشرِّيرة، وحرِّر عمل يديك[١٦] من سُلطان الرُّوح الغريب[١٧]. لأنَّ لك، وبك لأبيك، المجد، والكرامة، والتَّبجيل. في الرُّوح القُدُس إلى الآباد آمين''.

١٤– هذا هو النَّوع الأوَّل من الزيوت. والنَّوع الثَّاني منها، يُعرف باسم: ''الزَّيت المقدَّس'' أو ''زيت الفَرَح أو البهجة'' وهي التَّرجمة الدَّقيقة للكلمة اليونانيَّة ἀγαλλιάσεως ἔλαιον والتي اختصرت إلى ἀγαλλιέλαιον والتي صارت تُنطق في العربية ''غاليلاون'' أو ''غاليليون'' بعد تحريفها قليلاً عن نطقها اليوناني، أو ''زيت الاستقسام أو الاستحلاف أو الجحد'' ἐξορκισμός ، أو ''زيت المسحة'' τὸ ἔλαιον τῆς χρίσεως . والنوع الثَّالث منها، يعرف باسم: ''الميرون'' μύρον والكلمة اليونانيَّة تعني ''الزَّيت'' أو ''الدُّهن''، ويُسمى أيضاً ''الزَّيت المقدَّس'' Holy Chrism ، أو ''زيت الشكر'' εὐχαριστία ، وهو المعروف في المخطوطات باسم ''زيت الأوخارسديَّة''، أو ''زيت تتميم أو تكميل'' τὸ χρίσμα τῆς τελειώσεως وقد أشار القدِّيس كيرلُّس الكبير إليه بهذا الاسم الأخير.

١٥– تباينت عدد مرَّات الرَّشم، بين أربعة رشومات، وخمسة رشومات، وستة رشومات، أو رشماً واحداً على الجبهة.

١٦– مزمور ٨:٧

١٧– τοῦ ἀλλοτρίου من الاسم ἀλλότριος أي: ''آخر – غريب – عدو – مضاد''. قارن مع (عبرانيِّين ١١:٣٤) في قوله: «هزموا جيوش غرباء». والتَّرجمة الإنجليزيَّة ذكرت: ''الرُّوح المضاد''. أمَّا التَّرجمة الفرنسيَّة فذكرت: '' الرُّوح العدو أو المضاد''. وكلُّها معاني واحدة للكلمة اليونانيَّة.

وذلك على اعتبار أنَّ مسؤوليَّة المسيح الرَّئيسيَّة، هي كبح الشيطان وانتهاره. إذ قد هزمه ودحره بالصَّليب.

إنَّ فاعليَّة الصَّلاة على الموعوظين لطرد الأرواح الشِّريرة، تظل مرتبطة دائماً بإيمان الموعوظ وتوبته، أو من ينوب عنه إن كان طفلاً. وإعلان هذا الإيمان، هو اقتداء بقول الرَّب لكلٍّ من طلب منه الشِّفاء: «بحسب إيمانك يكون لك».

وهنا تأتي مرحلة جحد الشيطان علانية.
بحسب الطَّقس الحالي في معظم الكنائس الشَّرقيَّة، يتم طقس جحد الشيطان قبل النُّزول إلى مياه المعموديَّة مباشرة. وعند جُرن المعموديَّة يقف الموعوظ، أو الطِّفل محمولاً على **ذراع أُمِّه الأيسر، ووجهه إلى الغرب**. والغرب هنا يرمز إلى الظُّلمة حيث يسود الشيطان، **ويرفع اليد اليُمنى إلى فوق**. ويقول المُعمَّد أو إشبينه:
"أجحدُك أيها الشيطان، وكلَّ أعمالك النَّجسة، وكلَّ جنودك الشِّريرة، وكلَّ شياطينك الرَّديئة، وكلَّ قوَّتك، وكلَّ عبادتك المرذولة، وكلَّ حيلك الرَّديئة والمضلَّة، وكلَّ جيشك، وكلَّ سُلطانك، وكلَّ بقيَّة نفاقك، أجحدُك، أجحدُك، أجحدُك".

والجحد ثلاث مرَّات هو أمرٌ فريدٌ من نوعه، ولا مثيل له إلاَّ في الطَّقس القبطي. ويشهد الغربيُّون أنفسُهُم أنَّه لم يبق من بين الطُّقوس الشَّرقيَّة كلِّها، سوى الطَّقس القبطي الذي حافظ – ولازال يحافظ – على صيغة جحد الشيطان حسب التَّقليد القديم، كما أوردته الوثائق الآبائيَّة القديمة، وكما مارسته كنيسة أورشليم في القرن الرَّابع الميلادي، ولكن في صيغة أكثر شموليَّة، اجتمع فيها جحد الشيطان نفسه، وكلَّ ما يمكن أن يُمتّ بصلة إليه(١٨).

يقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧– ٤٠٧م):
[ليته لا يرجع أحدٌ، فينسى ما قد تاب عنه. فعلى هذا الأساس، أُمرنا أن نقول: "أجحدك أيها الشيطان"، كي لا نرتد إليه مرَّة أُخرى].

ويقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩–٣٩٧م) أُسقُف ميلان:
[تذكَّروا ما سُئلتم عنه وبماذا أجبتم. لقد جحدتم الشيطان وأعماله والعالم بكلِّ تنعُّماته وملذَّاته، ولقد حُفظ ما نطقتم به، لا في قبور الأموات بل في سفر الحياة] (في الأسرار، الفَصل ٢).

يقول الأب ألكسندر شميمان: "إنَّ الحقيقة المحزنة أو الفظيعة، هي أنَّ معظم المسيحيِّين لم يعُد بإمكانهم أن يعاينوا وجود الشيطان وعمله في هذا العالم، وفقدوا شعورهم بالحاجة إلى رفض أعماله وعبادته. إنَّهم لا يتبيَّنون الوثنيَّة الواضحة "المعشعشة" في أفكار البشر وقيمهم، وهي تُقولِب حياتهم وتوجِّهها وتستعبدها بشكل يفوق عبادة الأصنام في الوثنيَّة القديمة"(١٩).

ويقول أحد عُلماء الغرب، وهو هيرمان بيزيل Hermann Bezzel (١٨٦١–١٩١٧م):"لقد تشيطنت البشريَّة، إلى الدَّرجة التي فيها صارت تؤمن بأنَّ الشيطان غير موجود"(٢٠).

إنَّ الشيطان هو روح عاقل، ذو قوَّة عقليَّة مستبدَّة. ومَدخلُهُ الأساسي للإنسان يكون دائماً عن طريق الفكر، وهو يستطيع أن يُصيب العقل كما الجسد أيضاً بأيِّ نوع من الأمراض، لكنَّ منفذه الحقيقي للجسد يكون عن طريق الفكر إذا مَلَكَ عليه. فالفكر هو مركز النَّفْس، والنَّفس تُحرِّك الجسد كلَّه. بل تستطيع النَّفْس الطَّبيعيَّة بمواهبها الطَّبيعيَّة أن تُهَيمن على الجسد كلِّه. فإن تشبَّع الفكر بالخطيئة واقتنعت النَّفْس بذلك، مارس الجسد فعل الخطيئة بسهولة. وهكذا يمكن أن يُصاب الجسد بكافة أنواع الأمراض بتأثير النَّفس المريضة. فمن هذا المدخل يدخل الشيطان ويسيطر

18- *DACL*, t. 2, p. 266.

١٩– ألكسندر شميمان، بالماء والرُّوح، مرجع سابق، ص ٣٨
٢٠– انظر: القُمُّص تادرس يعقوب ملطي، عبادة الشيطان في العصر الحديث، ص ١٥٦

على الإنسان بكُلِّيَّته. وهذا ما يعنيه الإنجيل المقدَّس في قول الرَّب عن المرأة المنحنية منذ ثماني عشرة سنة، «ربطها الشيطان» (لوقا ١٣: ١٠-١٧)، فيستطيع الشيطان اصطناع جميع الأمراض ليصيب بها الإنسان، عندما يملك حياته.

ولكن ما دام الإنسان حافظاً عهده المقدَّس، لا تقوى كلُّ قوَّات الشَّر عليه، لأنَّه حينئذ يكون محفوظاً بقوَّة عُلويَّة سماويَّة، ترتعب وتهرب منها الشياطين.

ثانياً: إعلان الإيمان

بحسب طقس المعموديَّة، فهذا الإيمان الذي نعلنه في المعموديَّة يمُر بثلاثة مراحل أساسيَّة هي:

(١) الاعتراف بالمسيح.
(٢) الإقرار بالإيمان بالثَّالوث القدُّوس.
(٣) الاستجوابات الثَّلاثة (بحسب الطَّقس الحالي، والطَّقس القديم).

ولكن قبل أن أشرح بإيجاز هذه البنود الأربعة ينبغي أوَّلاً أن نفرق بين ''الاعتراف بالمسيح''، و''الإقرار بالإيمان بالثَّالوث القدُّوس''.

تعبيرا "الاعتراف بالمسيح"، و "الإقرار بالإيمان"

لدينا في هذه المرحلة من طقس المعموديَّة فعلان ليتورجيَّان، يتميَّز كلٌّ منهما عن الآخر تماماً:

• الفعل الأوَّل هو: ''الاعتراف بالمسيح''. وهو يختص بالأقنوم الثَّاني من الثَّالوث القدُّوس. ويُعرَف هذا الفعل اللِّيتورجي في الطَّقس البيزنطي باسم ''الاتحاد بالمسيح'' σύνταξις وفي الطَّقس الأنطاكي باسم ''الخضوع للمسيح''. ويمكن لأيِّ تعبير منها أن يحل محلَّ الآخر، طالما أنَّ الغاية في النِّهاية هي قبول المسيح مخلِّصاً وملكاً لحياتنا.

• الفعل الثَّاني هو: ''الإقرار بالإيمان'' ὁμολογία . وهو إقرار بالثَّلاثة أقانيم الآب والابن والرُّوح القُدُس.

ويوضِّح القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) الفرق بين الإيمان والاعتراف، حيث الإيمان هو بالثَّالوث، والاعتراف هو بالمسيح، فيقول:

[التَّسليم الخاص بالمعموديَّة، يحتِّم **الإيمان والاعتراف** بصيغة معروفة عند معموديَّتنا][٢١].

(١) الاعتراف بالمسيح

''يحوِّل (طالب العماد) وجهه **إلى الشَّرق**، ويده مرفوعة إلى فوق، **(أو كلتا يديه)**[٢٢] ويقول:

''أعترفُ لك أيها المسيح إلهي، وبكلِّ ناموسك المخلِّصة، وكلِّ خدمتك المحيية، وكلِّ أعمالك المعطية الحياة''.

والطَّقس القبطي هو الوحيد بين الطُّقوس الشَّرقيَّة، الذي يحتفظ بعادة رفع اليدين إلى فوق أثناء كلمات الانضمام للمسيح والإقرار بالإيمان، كتعبير عن تسليم كلِّ الحياة للمسيح له المجد.

هذا هو إعلان الولاء للمسيح، ولتعاليمه – أي الخضوع لكلمة الإنجيل المقدَّس – ولأعماله المعطية الحياة. وهو في ذلك يشبه القَسَم الذي يؤدِّيه الجنود مرَّة واحدة وإلى مدي حياتهم كلِّها. إنَّها ليست كلمات تنطقها الشِّفاه، لأنَّها صادرة من أُناس اختاروا طواعية من كلِّ قلوبهم وبكامل إرادتهم أن ينضمُّوا للمسيح وملكوته، حاسبين مقدار التَّبعات الملقاة على عاتقهم من جرَّاء هذا الانضمام إلى مملكة النُّور، وما تثيره عليهم مملكة الشيطان والظُّلمة من حرب، حتى

21- *De spiritu sancto*, c. xxvii, 67.

22- *BSAC.*, t. 11, p. 66.

وإن انفضَّت عنهم إلى حين.

ويقول الكاهن سرًّا، وهو منطرح على جُرن المعموديَّة: ''أرسل قوَّتك من علوِّك المقدَّس، وقوِّني لكي أعمل خدمة هذا السِّر العظيم السَّمائي. **فليتصوَّر المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد الجديد** مني أنا الشَّقي، ابنهم على أساس الرُّسُل والأنبياء، ولا تهدمهم بعد. اغرسهم غرس الحق في كنيستك الواحدة الوحيدة الجامعة الرَّسوليَّة ...''.

(٢) الإقرار بالإيمان

في الطَّقس القبطي يلقِّن الكاهن الموعوظ أو إشبين الطِّفل قانون الإيمان قائلاً:

''أؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكُل، وابنه الوحيد يسوع المسيح ربِّنا، والرُّوح القُدُس المحيي، وقيامة الجسد، والكنيسة الواحدة الوحيدة، المقدَّسة، الجامعة[٢٣]، الرَّسوليَّة آمين''.

هذا هو قانون إيمان المعموديَّة المقدَّسة في الكنيسة القبطيَّة في صورته السَّحيقة في القِدَم. ولقد حافظت الكنيسة القبطيَّة على هذه الصِّيغة القديمة حتى اليَوم، و لم تستبدلها بصيغة قانون إيمان نيقية والقسطنطينيَّة، كما فعلت كلُّ الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى.

إذاً، أنت يا من اعتمدتَ على اسم المسيح ولبستَ المسيح، هل تعرف كيف أنَّ الله واحدٌ في ثالوث؟ أو لماذا كان يلزم أن يصير الله إنساناً من أجلك وهو في ذات الوقت الإله الحقيقي؟ ولماذا كان يلزم لفدائك أن يموت ابن الله موت الصَّليب؟ وهل كان يكفي نُطق ملكي، لكي تخلُص البشريَّة، كما خُلقت في الأصل بنُطق إلهي؟ وما هي قيامة الجسد؟ وما هي الكنيسة؟ وما معنى صفاتها أنها واحدة جامعة رسوليَّة؟ لقد تعهدتَ بحفظ إيمان تعرفه، لا بإيمان لست تعرفه. وإن كنتَ لم تكن تعرف آنئذ، يوم معموديَّتك، فلماذا لم تعرف حتى اليَوم؟

(٣) الاستجوابات الثَّلاثة

هناك ممارستان، لهذه الاستجوابات الثَّلاثة، الأوَّل منهما قديمة وهي التي تمارس حالياً، والثَّانية سحيقة في القِدَم. فبحسب الطَّقس القبطي الحالي، وقبل أن يغطس المُعمَّد في مياه المعموديَّة، يسأله الكاهن ثلاث مرَّات ''آمنتَ؟'' أو يسأل الإشبين ثلاث مرَّات قائلاً: ''آمنتَ على هذا الطِّفل؟'' فيجيبه ثلاث مرَّات: آمنتُ. وهنا يُغطِّس الكاهن المُعمَّد في الماء ثلاث مرَّات باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس.

وأقدم إشارة أعرفها حتى الآن عن هذه الإجابة المختصرة، هي في قول للقدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):
[من الضَّروري أن نفهم أنَّنا نُظهر لله اعتراف الإيمان أيضاً، عندما سُئلنا من قِبَل الرِّجال المنوط بهم العناية بالأمور المقدَّسة والكهنوت، فأجبنا ''آمنتُ'' وقت نوال العماد المقدَّس][٢٤].

وينفرد الطَّقس القبطي بترديد المعمَّد – أو من ينوب عنه – لكلمة ''آمنتُ'' ثلاث مرَّات في نهاية إعلان الإيمان، تقابُلاً مع مرَّات الجحد الثَّلاث ''أجحدُك'' التي ردَّدها في نهاية جحد الشيطان. هذه هي المرَّة الأولى التي يُعلن فيها المعمَّد – أو من ينوب عنه – إيمانه جهراً على مشهد من كثيرين. فيا لها من لحظة مهيبة.

عند هذه اللَّحظة، إن كان المُعمَّد طفلاً، يُصبح إشبينه مسؤولاً مسئوليَّة مباشرة عن إيمانه. وفي الكنيسة القبطيَّة غالباً ما

٢٣- ''الجامعة'' أي ''الكاثوليكيَّة''. وهو تعبير شرقي قديم، نقرأه في القُدَّاسات القبطيَّة القديمة في نصِّها اليوناني καθολικῆς . ويرد هذا الاسم أيضاً عند القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي الشَّهيد (٣٥-١٠٧م) في رسالته إلى كنيسة أزمير (٨:٢). وهو تعبير لا يُقصد به الكنيسة الغربيَّة، أي الكنيسة الرُّومانيَّة اللاَّتينيَّة، إذ أنَّ الانقسام الكبير الذي حدث في الكنيسة، وشطرها إلى كنيسة أرثوذكسية، وأخرى كاثوليكيَّة، قد حدث في القرن الحادي عشر أي سنة ١٠٥٤م.

24- *PG* lxxiv, col. 49- 50 ; Cf. *DACL*, t. 2, p. 265.

تكون الأم هي إشبين الطِّفل. وهنا يتَّضح أمامنا الدَّور الخطير المُلقى على الأُم في تربية طفلها على الإيمان الصَّحيح. ولـــذلك فإن الكنيسة قد أمرت في قوانينها، أن يتأكد الكاهن من صحَّة إيمان الإشبين، قبل إجراء مراسيم المعموديَّة للطفل.

وهناك ممارسة طقسيَّة أُخرى سحيقة في القِدَم، هي بديلٌ لما سبق ذكره عن ترديد المُعمَّد لكلمة ''آمنت'' ثلاث مرَّات. وهي الاستجوابات الثَّلاثة التي تكون بين الغطسات الثَّلاث في الماء، وليس قبلها كما في الطَّقس الحالي. وهي الاستجوابات التي نعرف نصُّها من ''قوانين هيبوليتس[٢٥]'' منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، حيث نقرأ:

''... يضع القسيس يده على رأس المُعمَّد ويسأله ويقول: 'أتؤمن بالله الآب ضابط الكُل؟ والذي يتعمَّد'، يقول: 'إني أؤمن'. فيغطِّسه في الماء دفعة أولى ويده على رأسه.

ويسأله ثاني دفعة ويقول له: 'أتؤمن بيسوع المسيح ابن الله، الذي ولدته مريم العذراء من الرُّوح القُدُس، الـــذي أتى لأجل خلاص البشر، الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي، الذي مات وقام من بين الأموات في اليوم الثَّالث، وصعد إلى السَّموات، وجلس عن يمين الآب، ويأتي ليدين الأحياء والأموات؟'، فيقول: 'إني أؤمن'. فيغطِّسه في الماء ثاني دفعة.

ويسأله ثالث دفعة ويقول له: 'أتؤمن بالرُّوح القُدُس البارقليط الفائض من الآب؟'، فإذا قال: 'إني أؤمن'؛ غطَّسه ثالث دفعة في الماء.

ويقول كلّ دفعة: 'إني أعمِّدك باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، **الثَّالوث المساوي**[٢٦]' ''.

ونقرأ عن أهميَّة هذه الاستجوابات الثَّلاثة في القرن الثَّالث الميلادي، وذلك في الرِّسالة الخامسة للبابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م) الـ ١٤ من باباوات الكنيسة القبطيَّة، التي كتبها إلى سيكستُس الثَّاني Sixtus II أُســـقُف رومـــا (٢٥٧- ٢٥٨م)، حيث يشرح فيها البابا ديونيسيوس حادثة وقعت لأحد الإخوة في كنيسة مصر، عندما حضر مراســـيم المعموديَّة، وسمع الأسئلة والأجوبة، فتيقَّن في قلبه أنَّ المعموديَّة التي اقتبلها لم تكن كما رآها وسمعها، إذ كانت مملوءة كُفـــراً وتجديفاً. فيقول البابا ديونيسيوس:

[كان أحد الإخوة ... يُعتبَر مؤمناً منذ زمن طويل ... وكان حاضراً مع من تعمَّدوا أخيراً. وعندما سمع الأسئلة والأجوبة، أتاني باكياً ونادباً سوء حظِّه، وسقط عند قدميَّ، واعترف محتجًّا بأنَّ المعموديَّة التي عُمِّد بها مع الهراطقة لم تكن كهذه المعموديَّة بأيِّ حال من الأحوال، إذ كانت مملوءةً كُفراً وتجـــديفاً ... لهـــذا طلب أن ينال هذا التَّطهُّر الكامل، وهذه النِّعمة الجزيلة. ولكنَّني لم أجسُر على أن أفعل هذا. وقلـــتُ: 'إنَّ شركته الطَّويلة كافية'. لأنَّني يجب ألاَّ أجسُر على أن أجدِّد من البداية شخصاً سمع الشُّكر، واشـــترك في ترديد آمين، ووقف أمام المائدة، ومدَّ يديه ليتناول الطَّعام المبارك، وتناوله فعلاً، واشترك وقتاً طويلاً في جسد ودم ربِّنا يسوع المسيح ... لكنَّه لا يكف عن النَّحيب ... الخ][٢٧].

وفي زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) عرفنا من القصَّة التي أوردها المؤرِّخ روفينوس (٣٤٥-٤١٠م) عن طفولة أثناسيوس عندما كان يعمِّد رفاقه في اللَّعب، وهو بعد طفل، أنَّه قد دار حوار بين البابا ألكســـندروس الـ ١٩ والطِّفل أثناسيوس، حيث سأله الأُسقُف عمَّا كان يصنعه، وعندما وجد أنَّ الأسئلة والأجوبة قيد قيلت كما يجـــب

٢٥- قوانين هيبوليتس، هي قوانين وضعها أُسقُف مصري، وقد سميت باسم هيبوليتس، لأنه اقتدى فيها بعناصـــر كتـــاب ''التَّقليـــد الرَّسولي'' لهيبوليتس الرُّوماني، الذي تمَّ تأليفه سنة ٢٣٥م، ولكنَّه لم يلتزم بمضمون هذا الكتاب تماماً، بل كان يشرح طقس كنيسة الإسكندريَّة. ولقد فُقد كتاب ''التَّقليد الرَّسولي'' واستمر العُلماء يبحثون عنه، حتى اكتشفوه محفوظاً في مصر في ترجمات قبطيَّة ثمَّ عربيَّة، تحت عنوان: ''التَّرتيب الكنسي المصري'' *Egyptian Church Order*. حيث اكتشفه العالم الألماني شفارتس E. Schwartz سنة ١٩١٠م، ومن بعده العـــالم الإنجليـــزي كونوللي R.H. Connolly والذي توصَّل إلى نفس النَّتيجة سنة ١٩١٦م، وذلك في أبحاث مستقلَّة لكلٍّ منهما، ودون أيِّ اتِّصال بينهما.

٢٦- عبارة ''الثَّالوث المساوي''، هي صيغة مصريَّة بحتة، ظهرت على الأقل في غضون القرنين الخامس والسَّادس للميلاد، وهو مـــا نجـــده في مخطوط يعود إلى القرن السَّادس الميلادي، وقد نشره العالم الليتورجي الألماني الشَّهير بومشتارك A. Baumestark .

A. Baumstark, dans *Or. Christ.*, t. I, p. 43.

٢٧- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، (٩:٧)، مرجع سابق، ص ٣٥٢

بشكلها القانوني، لم يتردَّد في أن يُعلن صحَّة هذه المعموديَّة المرتجلة.

ويقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أُسقُف ميلان:

[لقد غطستم إذاً، فتذكَّروا ما أجبتم به على الأسئلة، أنَّكم تؤمنون بالآب، وتؤمنون بالابن، وتؤمنون بالرُّوح القُدُس. لم يكُن الإقرار أنَّكم تؤمنون بأقنوم أعظم، وأقنوم عظيم، وأقنوم أقل عظمة، ولكنَّكم ارتبطتم بنفس التَّأكيد بإعلان صوتكم أنَّكم تؤمنون بالابن بنفس إيمانكم بالآب، وأنَّكم تؤمنون بالرُّوح القُدُس بنفس إيمانكم بالابن، باستثناء واحد، هو أنَّكم تعترفون أنَّكم ينبغي أن تؤمنوا بصليب الرَّب يسوع وحده].

لقد كان الإقرار بالإيمان عل شكل أسئلة وأجوبة، هو ما تمارسه كنائس مصر وسورية وأورشليم وفلسطين وكلُّ آسيا. ولكن مع الأسف، نجد أنَّ طقس الاعتراف بالإيمان تحت شكل أسئلة وأجوبة كما عرفه التَّقليد المصري القديم، سرعان ما اختفى منذ القرن السَّادس الميلادي. ولم يعُد لهذا الطَّقس أيُّ أثر في كُتُب الطَّقس الحاليَّة. ويبدو لي أنَّ اندثار هذه الممارسة السَّحيقة في القِدَم، قد تزامنت مع اندثار رُتبة الموعوظين البالغين في الكنيسة، حيث شاعت معموديَّة الأطفال منذ القرن السَّادس الميلادي.

وقبل أن أنتقل إلى النُّقطة التَّالية، وهي التَّغطيس في مياه المعموديَّة، أوردُ هنا نصَّ الصَّلاة اللِّيتورجيَّة التي يقولها الكاهن حاليًّا، قبل قُدَّاس المعموديَّة، والذي يعقبه مباشرة التَّغطيس في المياه، وهي صلاة في غاية العُمق، فيقول:

''أيها الأزلي السيِّد الرَّب الإله، الذي **جبل الإنسان كصورته ومثاله**، الذي أعطانا **سُلطان الحياة الدَّائمة**، ثمَّ لمَّا **سقط في الخطيئة** لم تتركه، بل **دبرت خلاص العالم بتأنس ابنك الوحيد** ربِّنا يسوع المسيح. أنت يارب أنقد أيضاً جبلتك، هؤلاء، من عبوديَّة العدو. اقبلهم في ملكوتك. افتح أعين قلوبهم، **ليستضيئوا بضياء إنجيل ملكوتك**. ولتصحب حياتهم ملائكة النُّور، ليخلِّصوهم من كلِّ مؤامرة، ومن المصادفة الرَّديئة، ومن سهم طائر في النَّهار، ومن شيطان الظهيرة، وممَّا يسلك في الظُّلمة، ومن خيال اللَّيل. انزع من قلوبهم كلَّ الأرواح النَّجسة، الرُّوح الخبيث الذي يُقلق قلوبهم، وروح الضَّلالة وكلَّ خُبث، روحَ محبَّة الفضَّة وعبادة الأوثان، روحَ الكذب وكلَّ نجاسة تُصنع كتعليم إبليس. اجعلهم خرافاً للقطيع المقدَّس الذي لمسيحك، **أعضاء نقيَّة للكنيسة الجامعة**، أواني طاهرة، أبناء النُّور، وارثين لملكوتك، لكي **يجاهدوا كوصايا المسيح، ويحرسوا الخاتم** من أي سارق، **ويحفظوا اللِّباس** بغير اضمحلال، ويفوزوا بطوباويَّة أصفيائك، بالمسيح يسوع ربِّنا، هذا الذي من قبله، يليق بك معه ومع الرُّوح القُدُس، المجد والإكرام ... الخ''.

ثالثاً: التَّغطيس في مياه المعموديَّة ثلاث مرَّات باسم الثَّلاثة أقانيم معاً، الآب والابن والرُّوح القُدُس

هنا نصل إلى مركز السِّر ومحوره، وهو النُّزول في الماء للدَّفن فيه بشبه موت المسيح الذي ماته لأجلنا. كقول القدِّيس بولس الرَّسول: «لأنه إن كنا قد صرنا متَّحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته»[٢٨]. وقوله أيضاً: «مدفونين معه في المعموديَّة، التي فيها أقمتم أيضاً معه، بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات»[٢٩].

نحن في المعموديَّة نعتمد بـ ''شبه'' موت المسيح، لأنَّ ما نجوزه من موت في المعموديَّة، هو لكي ننجو بموت المسيح الخلاصي وليس بموتنا نحن. فنعتمد بشبه موت المسيح، وليس كموت المسيح في جوهره، كفعل خلاصي لكلِّ العالم. لأنَّ المسيح مات بجسده الذي اتَّحد بلاهوته بلا افتراق عنه، ولا عند موته، فصار موته إبادة للموت الأبدي بسبب لاهوته المتَّحد بناسوته، والذي أفرز فيه قوَّة حياة أنهضته من الموت حائزاً نصراً وحياة لكلِّ من يجوزون في شبه موته بالمعموديَّة.

٢٨- رومية ٦:٥

٢٩- كولوسي ٢:١٢

فنحن نموت بشبه موته، لأنَّ موتنا لا يكمِّله سوى موت المسيح وحده. إنَّنا نشترك في شبه موت المسيح، وليس في جوهر موته، لأنَّ الفارق بينهما هو الفرق بين ما هو إلهي وما هو بشري. فالموت الذي نجوزه في المعموديَّة، ليس للجسد المنظور بغرائزه الطَّبيعيَّة، بل للإنسان العتيق الذي يُدفن حقًّا في المعموديَّة، ليولد الإنسان الجديد فينا، والذي به – وبه وحده – نرث الحياة الأبديَّة. لأنَّه لا يمكن للجسد الطَّبيعي أن يدنو من عرش الله، لأنَّه لا يستطيع.

يقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم:

[لم يتحدَّث الرَّسول بولس عن موته (أي موت المسيح) حتى لا يفزع أحدٌ، بل عن شبه موته. لأنَّنا أنفسنا لم نُمت، بل إنسان الخطيئة] (عظة ١١ على رسالة رومية)..

المعموديَّة ليست وسيلة نعمة، بل شركة حقيقيَّة في موت الرَّب وقيامته. موت بشبه موت المسيح، وقيامة حقيقيَّة معه. فالمعموديَّة لا تمثِّل أو تصوِّر هذا الموت، أو هذه القيامة في المسيح، كتعبير ظاهري عن هذا الإيمان، بل هي نفسها مضمون هذا الإيمان وحقيقته. هي ليست رمزاً أو مجازاً لهذا الإيمان، أي رمزاً لشركتنا في موت الرَّب وقيامته، بل حدثٌ حقيقيٌ لهذه الشَّركة، وهنا يكمُن سرُّها، وهذا هو المدخل الوحيد للحياة في المسيح.

ويقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) معقباً على نفس الموضوع:

[نحن لم نُمت فعلاً، ولم نُدفن، كما أنَّنا لم نُصلب في الواقع، أو نقوم من الموت، بل نتشبَّه بكلِّ هذا، وفي نفس الوقت كان خلاصُنا حقيقياً. المسيح فعلاً صُلب، وفعلاً دُفن، وحقًّا قام، ولذلك منح لنا كلَّ هذه مجَّاناً، حتى إذا ما اشتركنا في شبه موته، ننال الخلاص في الحقيقة] (٧:٢٠).

وهكذا يصف القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) طقس المعموديَّة في حدوده النِّهائيَّة بقوله:

[وبغطسات ثلاث، واستدعاءات بنفس هذا العدد، يتم سرُّ المعموديَّة العظيم][٣٠].

وتُعدُّ الغطسات الثَّلاث في كلِّ مكان، والخروج الكامل من الماء بعد كلِّ غطسة، تقليداً أصيلاً قديماً، يمتدُ إلى زمن الآباء الرُّسُل القدِّيسين[٣١]. فممارسة التَّغطيس في الماء ثلاث مرَّات، باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، هو الطَّقس الذي يراعيه الشَّرق المسيحي بدقَّة، ويحفظه كتقليد رسولي.

ولقد أرسل الأُسقُف أمفيلوخيوس[٣٢] Amphiloque إلى القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) يسأله عن ضرورة إخراج المعمَّد كاملاً من الماء بعد كلِّ غطسة، وكان جواب القدِّيس باسيليوس، إنَّه لا يمكنُنا أن نفصل بين فعلي التَّغطيس في الماء والرَّفع منها، فكلُّ فعل منهما يكمِّل الآخر، والتَّغطيس لا يعارضه الخروج من الماء بعد كلِّ غطسة[٣٣].

وفي الرِّسالة الأولى للقدِّيس أثناسيوس الرَّسولي عن الرُّوح القُدُس إلى الأُسقُف سرابيون يقول له:

[الإيمان بالثَّالوث المسلَّم لنا يوحِّدنا بالله. فمن ينتزع شيئاً من الثَّالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن بدون الرُّوح القُدُس، فهو لا ينال شيئاً، بل يظل فارغاً وغير مستوفٍ شروط الانضمام، هو والذي ظنَّ أنَّه منحه المعموديَّة] (٣٠:١).

30- St. Basile, *De Spir. Sancto*, c. XV, 35 ; *PG* xxxii, col. 130- 132.

31- *DACL*, t. 2, p. 292.

٣٢- عاش في زمن الإمبراطورين فالنتيانوس وفالنس سنة ٣٧٤م، ولمعت شهرته من سيرته النُّسكيَّة وسعة اطلاعه، ومعارفه اللاَّهوتيَّة، فصار أُسقُفاً على إيقونيوم (قونية) وكان ضمن آباء المجمع المسكوني الثَّاني. وإجابة لسؤاله، أرسل إليه القدِّيس باسيليوس الكبير فصوله السَّبعة والعشرين عن الرُّوح القُدُس. ولم يصل لنا من كلِّ كُتُبه سوى قصيدة، نظَّمها في تعداد أسماء الكُتُب المقدَّسة القانونيَّة. وكان واحداً من المناضلين عن لاهوت الرُّوح القدُس.

33- *Epist.*, cc xxxvi, 5 ; *PG* xxxii, col. 883.

وهكذا، فقد راعىَ الطَّقس القبطي القديم أمرَين عند الغطسات الثَّلاث هما:
• أنَّ كلَّ غطسة من الغطسات الثَّلاث يسبقها سؤال عن أحد الأقانيم الثَّلاثة، يجيب عنه المعمَّد بكلمة ''آمين''.
• وأنَّ كلَّ غطسة من الغطسات الثَّلاث تكون باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس.

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[بعد أن وُلدنا من فوق من الماء والرُّوح، **نصير كلُّنا أحياءً في المسيح**، إذ لم يعُد الجسد فيما بعد ترابياً، بل قد تطبَّع بطبع الكلمة، بسبب كلمة الله الذي صار جسداً لأجلنا][٣٤].

ويقول أيضاً:
[إنَّ حلول الرُّوح القُدُس عليه (على المسيح) في الأردن، كان حلولاً للرُّوح علينا نحن، بسبب أنه كان لابساً جسدنا نحن ... **ولَمَّا قَبِلَ الرُّوح القُدُس، كنَّا نحن الذين نقبله بواسطته**][٣٥].

تعقيب على التَّغطيس في الماء بحسب الطَّقس الحالي

• بعض المصادر القبطيَّة، تذكر أنَّ كلَّ غطسة تكون باسم الثَّلاثة أقانيم معاً، بينما ذكر بعضها الآخر، أنَّ كلَّ غطسة هي باسم أحد الأقانيم الثَّلاثة فقط. ولكن يظل البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) هو المصدر الأكثر وثوقاً بين كافة المصادر الطَّقسيَّة. ولازال الأحباش الذين حافظوا على كثير من الطُّقوس القبطيَّة القديمة، يكرِّرون ثلاث مرَّات مع كلِّ غطسة من الغطسات الثَّلاث: ''أنا أعمِّدك باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس''.

وأرى أنَّ السَّبب في اتجاه كتاب المعموديَّة المطبوع إلى تبنِّي أن تكون كلُّ غطسة في الماء باسم أحد الأقانيم الثَّلاثة، وليس باسم الثَّلاثة أقانيم معاً، هو النَّهج الذي نهجه كتاب ''مصباح الظُّلمة في إيضاح الخدمة'' لابن كَبَر (+١٣٢٤م)، كواحدة من الممارسات التي عُرفت في كنيسة مصر، ولكنَّها ليست الممارسة الوحيدة في ذلك. ولي أحياناً مؤاخذات على ابن كَبَر، إذ لا يذكر أبداً المصادر التي ينقل عنها، مكتفياً بالقول أحياناً: ''يقول الآباء''.

• إنَّ البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) هو أوَّل من أشار إلى حالات خاصة يُستثنى بموجبها التَّغطيس ثلاث مرَّات في الماء، حيث يُكتفى بتغطيس الطِّفل لوسطه فقط في الماء في الغطستَين الأوليين، ثمَّ يُغطَّس كاملاً في الثَّالثة.

لقد كانت الغطسة الواحدة أو الغطستان إنكاراً للثَّالوث القدُّوس. وفي القانون الخمسين من ''المراسيم الرَّسوليَّة'': ''أيُّ أُسقُف أو قسيس لا يتمِّم ثلاث غطسات في السِّر الواحد، بل بغطسة واحدة تُعطىَ لموت الرَّب[٣٦]، فليُجرَّد. لأنَّ الرَّب لم يقُل لنَّا: عمِّدوا الموتى، بل «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس»[٣٧]''.

٣٤- ضد الأريوسيِّين ٣:٣٣
٣٥- ضد الأريوسيِّين ١:٤٦، ٤٧
٣٦- انظر: رومية ٦:٣
٣٧- متى ٢٨:١٩